الفقهاء والتربية

● **رسالة الفقهاء التربوية :**

لا يمثل الفقهاء فى المجتمع الإسلامى طبقة منعزلة عن بقية المسلمين ، تتمثل فى كهنوت ودرجات ، ويستطيع أى مسلم أن يقوم بأى من الوظائف الدينية . وبعد أن يؤديها يبقى كأى واحد من الرعية . ومع ذلك ، فإن الرجال الذين تميزوا بعلمهم ، وأولئك الذين أضفت عليهم فضائلهم مهابة بين الناس ، كانت تجمع بينهم غايات مشتركة ، وانتهى بهم المطاف إلى تكوين تنظيم إذا لم يكن طبقة مغلقة ، ثابتة ومحددة بدقة ، فهم جماعة قوية ، تحاول السلطة السياسية فى الدول الإسلامية تقريبًا أن تلتقى معهم ، وأن تستخدمهم ، لا لأن الدولة تجرى على سنن دينى فحسب ، وأن وزراءها يرتبطون به لأسباب دينية وفكرية خالصة ، وإنما أيضًا لأن الفقهاء يمثلون فى الواقع السلطة التشريعية ، والمسلمون يتخذون من القرآن والسنة هاديا وفيصلا فى الجانب العملى من حياتهم ، خلقيا ودينيا وسياسيًا ، ولكن القرآن يحتاج إلى تفسير ، ومن ثم كانت السنة طريقا وضمانا للوصول إلى حقيقة ما يهدف إليه ، وهذه الجماعةمن الفقهاء ، المتعمقون فى علوم الشريعة وحملتها ، هم الذين ألهموا الشعب خبرته وعاداته ، ويدافعون عن فتاواهم فى المحاكم ، ولنصيحتهم تأثير فى أوامر الملوك ، ومن هنا كان دورهم الذى حققوه خطيرًا ، وانتهى بهم الحال إلى أن أصبحوا سلطة حقيقية داخل الدولة .

وهذا الاعتبار وحده يجعلنا نفهم أهميتهم ، المترامية الأطراف أيضًا ، والتى مارسوها على التعليم .

يمكن أن نميز من الرواية التالية الفارق بين الدور الذى اضطلع به الفقهاء ، والدور الذى اضطلعت به الدولة فى التربية ، فى إسبانيا الإسلامية :

يروى ابن القوطية ، فى كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس »[1] **أن الصميل** ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ويوجه **الأمير يوسف الفهرى** على هواه ، ومن ثم كان الملك الحقيقى

---

(١) حلل خوليان ريبرا كاتب هذه الدراسة كتاب ابن القوطية تحليلا رائعا ، ووازن بينه وبين كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وقد نشرنا ترجمة هذه الدراسة فى كتابنا : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، ص ٣٥ – ٥٧ ، ط ٣ دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧ . (المترجم) .

فى إسبانيا ، « خطر ذات يوم بمؤدب يؤدب الصبيان ، وهو يقرأ : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[1] فقال الصميل : نداولها بين العرب . فقال المؤدب : بين الناس ، فقال الصميل : أو هكذا نزلت الآية ؟ . قال له : نعم ، هكذا نزلت . قال الصميل : والله أنى أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأراذل »[2] .

وهذه الرواية بوسعها أن تقدم لنا صورة يمكن أن توضح مسافة الخلف التى كانت قائمة بين السلطتين السياسية والدينية فى إسبانيا الإسلامية : الأولى هدفها أن تحافظ على سلطاتها أولا ، رغبة أو رهبة ، بالذهب أو السيف ، على حين أن الرجال الأتقياء من ذوى الحماسة القوية ، والغيرة الدينية الملتهبة ، استغلا سوء الظن المتأصل لدى الإسبان فى عقائدهم ، فمضوا يبشرون بالدين الإسلامى بين عامة الإسبان على أوسع نطاق ، وانتشروا عبر أنحاء شبه الجزيرة يحفظونهم القرآن ، كتاب المسلمين الموحى ، على حين لم يكن أمويو الأندلس يحكمون إلا فى العاصمة ، لأن العالم كله أدار لهم ظهره ، ولم يكن يصل المقاطعات الثائرة بعاهل قرطبة إلا ظل من الطاعة الروحية فحسب[3] .

وإذا كان المذهب المالكى فى إسبانيا يدين بالفضل للأسرة الأموية المالكة ، لأنها خصت الفقهاء الذين ينتمون إليه بالمناصب العامة ، فإلى هؤلاء أيضًا يعود الفضل فى أنهم فتحوا الطريق أمام الأمويين لكى يجعلوا يومًا من إسبانيا الإسلامية وشمال غرب أفريقيا ، حيث انتشر مذهبهم وبلغ تأثيرهم غايته ، دولة واحدة .

وقد استطاع الفقهاء أن يحملوا إلى جانب العقيدة الدينية والأخلاق الإسلامية ، المبادىء القرآنية ، وهدى الرسول ﷺ فى الدعوة إلى التعلم والدرس ، إلى كافة الأقطار التى بلغها الإسلام وكان ذلك موضع الإجلال منها ، إجلال يبلغ درجة التقديس أحيانًا . وإلى جانب هذا الواقع ، فإن الشعوب التى ظلت تحتفظ بتقاليدها العلمية القديمة ، أقبلت على تجديدها ، وحينئذ أدرك الفقهاء أن الأمور تمضى بأسرع مما يتفق مع مصالحهم

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٠ .

(٢) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٤٠ و ٤١ ، طبعة مجمع التاريخ فى مدريد . وتأمل ما تنطوى عليه كلمات الوزير من استغراب لما جاء فى القرآن الكريم .

(٣) لم يجرأ أحد من الأمويين فى الأندلس على استخدام لقب « خليفة » حتى أيام عبد الرحمن الناصر ، وعندما وضع عبد الرحمن الداخل قدمه فى شبه الجزيرة أمر بترك الدعوة للخليفة العباسى ، وأن يخل اسمه مكانه ، ولكنه لم يتخذ لقب خليفة ، وإنما كانوا يطلقون عليهم جميعًا لقب أبناء الخلفاء ، أنظر : ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، ص ٩ .

نفسها ، فتراجعوا القهقرى مرعوبين ، وحاولوا إطفاء الحمية التى تملأ وجدان تابعيهم ممن انصرفوا إلى التخصص فى الدراسات العلمية غير الدينية .

● **موقف فقهاء المالكية من بقية المذاهب :**

وكان الأمر فى إسبانيا الإسلامية أكثر انغلاقًا ، وعدم التسامح أشد تضييقا ، فيما يتصل بالمواد العلمية ، لأن فقهاء المذهب المالكى وقد رأوه يسيطر على الضمائر وحده ، ملأهم العجب بما تحقق من إقبال جل الناس عليه فى شبه الجزيرة ، وحاولوا أن يقفوا دون المذاهب الأخرى حتى لا تنافسه فى هذا المجال ، وتقدم علما مختلفا عما تحويه كتب أمام مذهب أهل المدينة ، وكان صاحب الكلمة الأخيرة لديهم ، فيما يتصل بعلم الكلام والفقه والأخلاق .

وتدليلا على هذا الرأى المسكين ، وحملهم عليه غطرستهم ، يكفى أن نذكر ما حدث لعالم جليل ، ورجل تقى ، وهو : **بقى بن مخلد** .

ذهب هذا العالم إلى المشرق للدراسة ، ولم يتلق العلم من فقهاء يدرسون مذهب عالم المدينة فحسب ، وكان ذلك بدعة شائعة بين طلاب إسبانيا الإسلامية ، وإنما حضر دروس علماء آخرين كثيرين ، من كل المذاهب ، شافعية وحنابلة وغيرهم . وبعد رحلة طالت عاد إلى إسبانيا الإسلامية خزانة ملئت علمًا عريضًا ومتنوعًا ، وملأ الأندلس حديثًا ورواية . [وكان مما انفرد به ولم يدخله سواه . « مصنف » **أبى بكر ابن أبى شيبة** رحمه الله بتمامه ، وكتاب الفقه ، **لمحمد بن إدريس الشافعى** ، الكبير بكماله ، وكتاب **التاريخ لخليفة بن خياط** . وكتابه **فى الطبقات** ، وكتاب **سير عمر بن عبد العزيز** رحمه الله **للدروقى** و« **تفسير القرآن** » ، **ومسند النبى** ﷺ ، ليس لأحد مثله] (١) .

وإذا كان من الطبيعى أن يثير مثل هذا الحسد والغيرة فى نفوس بعض الذين تخلفوا هنا فلم يرحلوا إلى المشرق ، لكن ليس ثمة سبب يبرر أن يسيء الجميع استقباله ، وربما كانت خطيئة **بقى** الكبرى التى ارتكبها ، ولا يمكن أن تغتفر له ، أنه احتفظ بلون من الاستقلال فى الرأى ، فلم يكن ينتسب إلى أى مذهب فقهى ، أو جماعة بعينها ، وإنما

---

(١) ما بين علامتى التنصيص زيادة من ترجمة بقى فى الصلة لابن بشكوال ، لإضفاء مزيد من التوضيح على ما جاء به ، انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، الترجمة ٢٨٣ ، من طبعة الدار المصرية ، القاهرة لعام ١٩٦٦ .

يصدر فتاواه طبقا لاجتهاده الشخصى ، معتمدًا على القرآن والسنة مباشرة[1] وهو شيء لم يستطع أتباع مذهب عالم المدينة. وكانوا ينهجون على خطاه فى طاعة عمياء، أن يغفروه لبقى، ولم يستطيعوا أن يهاجموه مباشرة، لأن المذاهب كلها تصدر عن نفس المورد الذى يغترف منه، ويستمد فتاواه، وحتى لايظهروا فى عجلة من أمرهم، متلبسين بفضيحة التسرع ، انتظروا الفرصة المواتية ، وجاءتهم حين بدأ **بقى** يدرس علنا كتاب **مسند بن أبى شيبة**[2] ، وهو يعرض إلى جانب فتاوى وآراءمذهب عالم المدينة ، الآراء المعارضة له ، لفقهاء آخرين ، من المذاهب الأخرى ، حول أية قضية يناقشها .

واجه **بقى بن مخلد** معارضة عنيفة من فقهاء المذهب المالكى ، وكان **ابن مرتنيل**[3] ، وهو ينتسب فى أسرة مسلمة تعود إلى أصول إسبانية ، وأصبح شيخ علماء المذهب فى أيامه ، أشد أصحابه على بقى ، ومعه **أصبغ بن خليل** [4] ، وكان خصمًا لدودًا لكل تجديد ، وأثر عنه قوله « لأن يكون فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند **ابن أبى شيبة** » . وأخيرًا **محمد بن حارث**[5] . « وكان أحد الثلاثة القائمين على بقى بن مخلد ، إلا أنه كان أجلهم فى قصته » ، وقد انطلق قادة الفقهاء كلهم فى شتم بقى وسبه ، والكلام ضده ، وإثارة حقد العامة عليه ، وهؤلاء مستعدون دائما لاحتذاء خطى الفقهاء ، وبلغت المأساة قمتها حين اقترحوا أن يجتمع العلماء فى مؤتمر ، « وتكلموا فى إصدار فتوى بإباحة دمه » .

ورأى **بقى** مرعوبا وخائفًا أن هذه الموجة المتواصلة تزداد كل يوم حدة ، وتطوقه من كل جانب ، وليس معه من يعتمد عليه إلا تلاميذه ، وهؤلاء رأوا أن يتوقفوا عن درسه حتى لا يصبحوا موضع شبهة ، وقرر هو أن يرحل إلى خارج إسبانيا فرارا بنفسه ،

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، جـ١ ص٨١٢ ، طبعة أوربا ، (جـ٢ ص٥١٨ وما بعدها ، طبعة إحسان عباس) . وانظر أخباره فى تكملة الصلة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١١٠٢ . والضبى ، الترجمة رقم ٥٨٤ ، وابن الفرضى ، الترجمة ٢٨١ . وابن عذارى ، جـ٢ ص١١٢ .

(٢) ابن الفرضى ، الترجمة رقم ٢٤٥ .

(٣) أنظر ترجمته فى : ابن الفرضى ، رقم ٦٣٢ ، ويسميه عبد الله بن محمد بن خالد ، ولكنه استخدم اللقب الذى يعرف به عادة ، وصيغته الإسبانية تومىء إلى احتمال أنه ينحدر من أسرة لاتينية .

(٤) ترجمته فى ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٢٤٧ ، طبعة القاهرة . (المترجم)

(٥) انظر ترجمته فى المصدر السابق ، رقم ١١٠٧ . (المترجم) .

وحينئذ بلغ ما كان يحدث الأمير محمدا فاستدعاه ، واستدعى جميع الفقهاء فى محضره ، دافع بقى عن نفسه بحجج قوية ، شقت طريقها إلى قلب الأمير وعقله ، فطلب الكتاب موضع الخلاف ، وتصفحه طويلا ، جزءا جزءا ، حتى أتى آخره . وبينما فقهاء المالكية الحاضرون يتوقعون أن يصدر الأمير أمرا بمنع تدريسه توجه هذا إلى خازن كتبه وقال له : هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه ، فانظر فى نسخه لنا » ، ثم قال لبقى : « انشر علمك ، وارو ما عندك » ونهاهم أن يتعرضوا له[1] .

● **ملاحقة الآراء الفلسفية :**

إذا كان هذا قد حدث لرجل عريض العلم ، ليس فى عقيدته مطعن ، ولا فى سنيته ظنة ، أكرمه الله ، فكان فيما يروى معاصروه : مجاب الدعوة ، مخصوص الكرامة[2] ، وتوفى ، بعد أن عمر طويلا ، يعبق بأريج الولاية ، وأحله توقير المسلمين له مكانًا عليا بين الأولياء الإسبان . ماذا كانوا يقولون إذن عن **ابن مسرة** وآخرين درسوا الفلسفة وعلومًا أخرى كانت موضع الزجر من مذاهب أهل السنة كلها ؟ مثل هؤلاء كان عليهم أن يفروا من المدينة ، وأن يتخذوا من رباط فى الجبل مقاما ، يعكفون تقاة طاهرين على دراسة العلوم الممنوعة ، ولا يستطيعون أن يصنعوه وسط زحام المدينة الصاخب ، دون أن يتعرضوا لغضب العامة الجامح ، وقد يودى بحياتهم دون محاكمة .

هذا المثل يكفى لكى نفهم ماذا صنع علماء المذهب المالكى ، وهو المذهب الرسمى للدولة ، بالتعليم فى إسبانيا الإسلامية حين اتخذوا منه مجالا لمحافظتهم ، ولحسن الحظ فإن رياحا أخرى كانت تهب من ناحية البلاط ، ترطب ذلك المناخ الملتهب تعصبا ، وبفضلها تنفس التعليم فى شىء من الحرية ، وأصبح فى ذرع بعض العلماء أن يدرسوا فى الأقل كتبا لاتنتمى إلى مذهب الإمام مالك . ومع ذلك ، فإن جذور المذهب المالكى تعمقت فى إسبانيا ، وسيطر على الحياة الدينية فى جانبيها العملى والقضائى ، وإذا كان هناك من يقرأ أو يدرس كتبا فى مذاهب أخرى ، فإنما يستجيبون لهواية لاتتجاوز حد الدرس ، ومن ثم فشلت كل المحاولات لإدخال أية مذاهب أخرى فى المجال العلمى[3] .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة ٢٨١ ، وابن عذارى ، فى البيان المغرب ، ١١٢/٢ ، طبعة دوزى .

(٢) التكملة لابن الأبار ، الترجمة رقم ١١٠٢ ، والمقرى ، نفح الطيب ٨١٢/٢ طبعة أوربا ، والضبى ، ص ٢٣١ طبعة مدريد .

(٣) جذوة الاقتباس ، ص ١٢٢ .

لقد اتفقت مذاهب أهل السنة كلها على الحيلولة دون أية مبادىء مشبوهة أو منحرفة ، والذين يأتون بجديد منها يرونها تعاليم خطرة فيخفونها ، لأن الناس ينزعون ثقتهم من أى واحد يستشفون فى آرائه وافكاره مثل هذا الاتجاه ، حينئذ يهجره الطلاب ، وتعود مدرسته خرابا وإذا اشتمت العامة منه شيئًا ، رغم كل الاحتياطات ، فسوف تلاحقه بالاتهام تلو الاتهام ، إلى أن تتخذ السلطات قرارا بنفيه ، وقد حرم **الحكم الثانى** نفسه من بعض علماء المشرق الذين استقدمهم ، لأنهم أثاروا حولهم هذه الشبهات[1] .

ومع مجىء **المنصور بن أبى عامر** اشتدت قبضة الفقهاء ، وكان فى حاجة ماسة إلى التأييد الشعبى لكى يمحو جريمة وثوبه على السلطة ، فألقى بنفسه بين أحضانهم ، وبلغ غاية التطرف حين ألقى ظلالا من الريبة على ذكرى **الحكم المستنصر** الجميلة ، فراجع كتبه ، وأخرج منها ما كان موضع شبهة ، وأحرقه علنا أمام جماعة من العلماء .

وفى هذه الحقبة التى اتسمت بالطغيان المذهبى والعسكرى لم يكن الناس أحرارا ، وأصبح من المعتاد أن يسمع الناس عند باب المسجد الجامع ، وفى أيام الأعياد ، وعند انتهاء الأعمال ، حيث يبلغ الزحام قمته ، من يشهر باسم واحد من أشهر الأدباء فى قرطبة يشك فى زندقته ، ويبحثون بين عامة الناس عمن يستطيع أن يشهد ضده ، حتى تستكمل المحاكمة أركانها الضرورية ، ويصبح الحكم شرعيا[2] .

إذا تصورنا مثل هذا الموقف أدركنا أى حذر ، وأية حيطة ، كان العلماء يتحركون خلالها ، حتى لايزل لسانهم ، أو تهفو أفكارهم ، وهم يلقون دروسهم ، مع ذلك نتج عن تحول الضغط الشعبى إلى رسمى فائدة ، وهى أن القائمين على توجيهه كانوا من أرفع الشخصيات ، فلم يدققوا كثيرا فى عملهم ، لأنهم يعلمون أن المنصور نفسه اول مشتبه فيه ، وإذا لم تكذب الألسنة الطويلة ، فقد أحرق كتب الفلسفة سياسة وليس رعبا من العلم ذاته ، وكان يضعف أمامه أحيانًا ، فيخصه ببعض الوقت فى لحظات وحدته[3] ، وما ربحه الاضطهاد فى الصخب المسرحى خسره فى التدقيق .

---

(١) ابن الفرضى ، الترجمة رقم ١٤٠١ .

(٢) أبو بكر الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٦٧ طبعة بولاق .

(٣) المقرى ، نفح الطيب ، ج١ ص ١٣٦ طبعة اوربا و ج١ ص ٢٢١ ، طبعة إحسان عباس .

● **عجز الفقهاء عن تقييد الحرية :**

وعندما انتثر عقد الخلافة ، وتكسرت إلى ممالك شتى ، أصبح من السهل إزاحة التعصب الشعبى ، واصبح الملوك أكثر تحررًا فى آرائهم ، وفى سرقسطة وطليطلة مثلا ، وهما من كور الحدود حيث يكثر الاتصال بين المسلمين والمسيحيين فى أيام السلم ، أصبح الناس أكثر تسامحًا وانبساطًا ، بل وانصرف الملوك إلى هذه الدراسات نفسها . ومع ذلك احتفظت الرجعية بكثير من قوتها ، واستطاعت أن تلاحق ابن حزم ، وجعلت منه آراؤه المتحررة هدفًا للهجوم الشديد عليه من فقهاء عصره ، فدافعهم ، وظل ينزح من بلاط إلى بلاط ، ثم استقر به المقام أخيرًا إلى منقطع أثره ، بتربة بلده ، من بادية لبلة ، « يبث علمه فيمن ينتابه ببادیته تلك ، من عامة المقتبسين منه ، من أصاغر الطلبة ، الذين لا يخشون فيه الملامة ، يحدثهم ، ويفقههم ، ويدارسهم ، ولا يدع المثابرة على العلم ، والمواظبة على التأليف ، والإكثار من التصنيف » ، والطلاب لا يعرفون ما تنطوى عليه مؤلفاته من خطر ، وقد أحرقت نسخها فى ميادين إشبيلية[1] .

وخلال ذلك كان المذهب المالكى يخسر الأرض شيئًا فشيئًا فى المجال النظرى ، وربما أيضًا بدأ يفقدها فى الحياة العملية ، لو لم يدعمه فى شبه الجزيرة رد فعل دينى جديد . ذلك أن أمراء المرابطين وجدوا فى المالكية أداة صالحة ، فأخذوا يستخدمونها لخدمة أغراضهم ، وأحاطوا أنفسهم بكبار فقهاء المذهب ، دون بقية العلماء من المذاهب الأخرى ، وحكموا طبقًا للفقه المالكى ، وعمموا دراسته واقتصروا عليها ، ووقفوا عندها ، وأهملوا دراسة القرآن والسنة تمامًا ، ولم يعد العلماء يوجهون من عنايتهم وحماستهم إلى هاتين المادتين إلا قليلا ، ويومها كان الناس يعتبرون كافرا ، أو على الأقل جاحدًا ، كل من يميل إلى الجدل فى علم الكلام ، وعدته السلطات العامة زنديقًا ، دون أن تتأمل خطورة الاضطراب الذى أحدثته فى العقيدة ، وهددت بإباحة دم كل من يوجد فى حوزته كتب من هذا القبيل ، وبخاصة كتب **الإمام الغزالى**[2] .

---

(١) فصلنا القول عن حياة ابن حزم فى كتابنا : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الرابعة دار المعارف ١٩٩٣ ، وانظر كذلك مقدمة تحقيقنا لكتاب ابن حزم : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، دار المعارف ، ط ٢ ١٩٩٣ .

(٢) المراكشى ، المعجب ، ص ١٢٣ ، طبعة ليدن . و١٧٣ طبعة سعيد العريان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩ م .

وقد خلع المذهب المالكى نفسه فى هذه المرة ، لأن التأثير الذى احدثه جاء على النقيض مما يرغب فيه ، فقد أدى إلى موجة من الاحتجاجات ، من جانب أشد الناس تقوى ، وأكثرهم فطنة وعلما .وأعتقد أن هناك من كان يعارضهم حتى فى تلك الأوقات التى كانوا يسيطرون فيها وحدهم ، كملوك ، على التعليم ، وأن هذه قد انتهى عهدها . وقد فتحت المذاهب الجديدة آفاقا عريضة أمام النابهين ، وأصبحت الآراء أكثر تحررا وإراحة ، ولو أن عامة الناس ظلوا فى مجال التطبيق العملى الخالص يزدادون تمسكا بالمالكية ، وبقيت الرياح العلمية الجديدة بمنأى عن المدارس ، واقتصرت هذه على دراسة العلوم التقليدية فحسب .

● **رد الفعل ضد فقهاء المالكية :**

وجاء **الموحدون** إلى إسبانيا الإسلامية وفى صحبتهم مذهبهم الجديد ، واعتمدوا على الرجال الأتقياء الصالحين ، وأدركوا سريعا أن الفتاوى الشرعية التى تصدر عن فقهاء شبه الجزيرة لا تعتمد على القرآن والسنة مباشرة ، وإنما على مذهب **الإمام مالك** فحسب ، وأن المصدر الإلهى الذى يجب أن تنبثق عنه كل سلطة ملزمة قد تنوسى تماما . وقد أدى هذا إلى فضيحة بدأت بمنع دراسة كتب الفقه المالكى ، وفيما بعد أمروا بإحراق كل ما وجدوه منها[1] .

« فأحرق (أى أبو يوسف يعقوب بن يوسف أمير الموحدين) منها جملة فى سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبراذعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، لقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار .

« وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك ، وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه بنفسه على الناس ، ويأخذهم

(١) تكملة الصلة لابن الأبار ، ص ٢٧٨ .

بحفظه ، وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجعل السنى من الكسا والأموال .

« وكان قصده (ما زال الضمير يعود على أبى يوسف) فى الجملة محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كل مقصد أبيه وجده ، إلا أنهما لم يظهراه ، وأظهره يعقوب هذا ، يشهد لذلك عندى ما أخبرنى غير واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجد ، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أقوال ، أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لى ، وقطع كلامى : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبى داود ، وكان يمينه ، أو السيف .

« فظهر فى أيام أبى يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ، ونال عنده طلبة العلم ، أعنى علم الحديث ، ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده ، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوما بحضرة كافة الموحدين يسمعهم ، وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه ، وتقريبه إياهم ، وخلوته بهم دونهم :يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء ، يعنى الطلبة ، لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم ، وإلى فزعهم ، وإلى ينتسبون ! ، فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم ، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم[1] .

وبعد أن مرت العاصفة برعمت الشجرة من جديد ، وواصل الأساتذة إلقاء دروسهم ، وأقبل الطلاب على تلقيها ، وما بقى قاض مسلم فى إسبانيا كان عليه أن يصدر أحكامه وفقا للمذهب المالكى ، وآخر موريسكى[2] بقى فى شبه الجزيرة هو آخر إسبانى ظل يطبق هذا المذهب فى حياته الدينية .

---

(١) المراكشى ، المعجب ، ص ٢٠١ طبعة أوربا .

● أوجز المؤلف كثيرا هذه الفقرة ، فجاءت غامضة ، كما أسقط الأسماء ، ووجهة نظر الموحدين مفصلة ، وآثرت أن آتى بها كاملة من النص الذى اعتمد عليه ، انظر : المعجب ، ص ٢٧٨ ، طبعة العريان (المترجم) .

(٢) يطلق لفظ موريسكى Morisco على المسلمين الذين تخلفوا فى إسبانيا بعد سقوط دولة الإسلام فى ٢ يناير ١٤٩٢ ، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد ، وطردوا نهائيا أخيرا ، عام ١٦١٣م .

وجاء الدور على الفلسفة ، أثناء الصراع بين مذهب ومذهب ، فتعرض الفلاسفة للاضطهاد ، وكتبهم للإحراق ، ولكنهم أحيانا ، فى لحظات غير قليلة ، تمتعوا وسط هذه الفتن بفترات من السلام الضرورى لك يلمعوا ، ورغم أنها كانت فترات قصيرة وخاطفة ، إلا أنها كانت ساطعة الضوء ، بالغة التوهج والحيوية والإشراق ، ونفذت إلى أعماق العصور التالية .

من خلال هذه النظرة السريعة يمكن أن نفهم بسهولة أن الفقهاء الإسبان المسلمين صنعوا كل ما يستطيعون لكى لا تكون حرية التعليم كاملة فيما يتصل بالأفكار العلمية ، ولكنهم لم ينشئوا جهازا يكون ساعدهم الأيمن فى تنفيذ غاياتهم ، وأدى ترك التعليم للمبادآت الشخصية إلى إنقاذ الثقافة ، لأن من العبث أن تفرض كتبا مقررة ، تستخدم فى الدراسة ، مع غيبة الجهاز الذى يضطلع بتنفيذ هذه الغاية .

وأخيرا يجب ألا نغفل رغم كل شىء ، الخدمات التى قام بها الفقهاء ، فقد عرفوا منذ البداية كيف يحنون الناس على الدراسة ، وفيما بعد وجهوا عنايتهم الفائقة لإنشاء مدارس كثيرة للفقراء ، وأصحاب العاهات ، ينفق عليها من الصدقات الخاصة ، وكانوا أتقياء دائما ، يحبون إهداء الكتب ، وأشيا أخرى ، للمساجد والمنشآت الخيرية ، والتى كان يفيد منها الطلاب وحدهم .